الباب الثامن

في توقي الرذائل

تمهيد

لم يضع الغزالي للرذيلة تعريفًا يخصها بالذات، وإنما هي عنده إفراط في الفضيلة أو تفريط. وهو يرى أن الإفراط في قوة العلم ينشأ عنه المكر والحقد والخداع والدهاء، وأن التفريط فيها يصدر عنه البله، والغمارة، والحمق، والجنون، وينشأ من الإفراط في الشجاعة التهور وما إليه من الجسارة، والبتجح، والاستشاطة والتكبر والعجب والبذخ. ويصدر من التفريط فيها الجبن، والهلع، والمهانة، وصغر النفس، والنكول. وأما الرذائل الصادرة من الإفراط أو التفريط في العفة، فهي: الشره، وكلال الشهوة، والوقاحة، والتخنث، والتبذير، والتقتير، والرياء، والتهتك، والمجانة، والعبث والشكاسة، والملق والحسد والشماتة... إلخ.

وألاحظ أن كلامه في هذا الباب غير واضح، وقد لاحظ هو ذلك، فأخذ يشرح أمثال الرذائل الآتية: الاستشاطة، الانفراك، التخاسس، البذالة، الشكاسة، الكزازة، التحاشي، النكول، الغمارة ... إلخ.

والأمر ينبغي كذلك في الفضائل المتفرعة عن أمهات الأخلاق.

وينبغي أن لا ننسى أن الغزالي يوصي دائمًا بقلع الخلال الرديئة وغرس مكارم الأخلاق، ويسمى هذا بالتخلية، والتحلية، أي إخلاء القلب من الشهوات، ثم تحليته بكرائم النزعات.

obeikandi.com

وإذ كنا بينا رأيه في جملة من الفضائل الضرورية للأفراد، فإنا ذاكرون كذلك رأيه في طائفة من العيوب والرذائل الكثيرة الوجود، ليتضح ما يتصوره من المثل الأعلى للحياة.

obeikandl.com

الفصل الأول

رذيلة الغضب

الغضب قوة تتوجه عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها. وهو فيما يرى الغزالي ثلاث درجات: التفريط، والإفراط، والاعتدال.

أما التفريط ففقد هذه القوة، أو ضعفها. وهو مذموم إذ من ثمراته قلة الأنفة مما يؤنف منه، كالتعرض للحرم والزوجة، والأمة، واحتمال الذل من الأخساء، وصغر النفس.

وأما الإفراط فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن العقل والدين، فلا تبقى للمرء بصيرة، ولا نظر، ولا فكرة، ولا اختيار.

وأما الاعتدال فهو المحمود، وهو غضب ينتظر إشارة العقل والدين: فينبعث حيث تجب الحمية، وينطفئ حيث يحسن الحلم.

قال الغزالي: «فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحس من نفسه بضعف الغيرة، وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه. ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جره إلى التهور واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه ليغض من سورة الغضب ويقف على الوسط بين الطرفين[1]».

---

[1] ١٦٩ ج ٣ إحياء.

obeikandl.com

أسبابه

وأسباب الغضب فيما يرى الغزالي ترجع إلى ثلاثة أقسام:

الأول: ما هو ضرورة في حق الكافة كالقوت، والملبس والمسكن، وصحة البدن وهذه ضرورات لا يخلو الإنسان من كراهة زوالها، ومن الغيظ على من يتعرض لها.

والثاني: ما ليس ضروريًا لأحد من الخلق كالجاه والمال الكثير، والغلمان، والدواب وقد صارت هذه الأشياء محبوبة بالعادة، والجهل بمقاصد الأمور.

الثالث: ما يكون ضروريًا في حق بعض الناس دون البعض، وهذا يختلف باختلاف الأشخاص.

علاجه

وقد وضع الغزالي طريقة لاستئصال رذيلة الغضب، كما وضع طريقة لتسكينه حين يثور.

أما الطريقة الأولى فهي استئصال الغضب باستئصال أسبابه وإذ كانت الأسباب المهيجة له هي الزهو، والعجب، والمزاح، والهزل، والهزء والتعبير، والمماراة، والمضادة، والغدر، وشدة الحرص على حصول المال، والجاه، فينبغي للخلوص من الغضب إزالة هذه الأسباب، وهي في نفسها رذائل تحتاج إلى رياضة، ورياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها، وتنفر عن قبحها، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس. فإذا انمحت عن النفس فقد ذكت وتطهرت من هذه الرذائل، وتخلصت أيضًا من الغضب الذي يصدر منها.

أما علاج الغضب بعد هيجانه فيرجع إلى العلم والعمل. والعلم ستة أمور:

١- أن يتفكر في الأخبار الواردة في كظم الغيظ، والعفو، والحلم، والاحتمال.

٢- أن يخوف نفسه بعقاب الله، فيذكر أن قدرة الله عليه أعظم من قدرته على من يريد أن يمضي فيه غضبه.

٣- أن يحذر نفسه عاقبة العداوة، والانتقام، وتشمير العدو لمقابلته، والسعي في هدم أغراضه، والشماتة بمصائبه.

٤- أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب، ومشابهة الغضبان للكلب الضاري، ومشابهة الحليم للأنبياء.

٥- أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام، ويمنعه من كظم الغيظ.

٦- أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده.

أما علاج الغضب بالعمل فهو أن تستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فإن لم ينفع ذلك، فاجلس إن كنت قائمًا، واضطجع إن كنت جالسًا، واقرب من الأرض التي منها خلقت؛ لتعرف ذل نفسك، فإن لم ينفع ذلك فتوضأ، أو اغتسل بالماء البارد.

درء الشر بالشر

بعد أن بين الغزالي علاج الغضب، وفضيلة الحلم، وكظم الغيظ، أخذ في بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام. وهو على الجملة لا يجيز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب، وكذا سائر

المعاصي. ويجيز أن ينتصر المظلوم لنفسه بالكلام في غير تلك المنكرات، ولكن الأفضل تركه، فإنه يجر إلى ما وراءه، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه. والسكوت عن الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع فيه.

ثم قسم الناس باعتبار الغضب إلى أربعة أقسام: قسم سريع الوقود سريع الخمود، وقسم بطيء الوقود بطيء الخمود، وقسم سريع الوقود بطيء الخمود، وهو شرهم، وقسم بطيء الوقود سريع الخمود. قال الغزالي وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة.

وقد أوجب على صاحب السلطان أن لا يعاقب أحدًا في حال غضبه لأنه ربما يتعدى الواجب، ولأنه ربما يكون متغيظًا على المعاقب فيكون متشفيًا لغيظه ومربحًا نفسه من ألم الغيظ، فيكون صاحب حظ، مع أن الواجب أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه.

ولا يفوتنا أن نذكر أن الغزالي كرر النصح بتجنب من يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب، ويسمون ذلك شجاعة ورجولة. فإن الفضل في الصفح الجميل.

الفصل الثاني

رذيلة الحقد

هو فيما يرى الغزالي وليد الغضب، فإن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال، رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقدًا، ومعنى الحقد -كما نص على ذلك- أن يلزم المرء قلبه استثقال المغضوب عليه، والبغضة له، والنفور منه، وأن يدوم ذلك ويبقى.

وللحقد ما يأتي من النتائج:

١- الحسد، وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عن عدوك، فتغتم للنعمة تصيبه، وتسر للمصيبة تنزل به.

٢- أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن فتظهر الشماتة بما أصابه من البلاء.

٣- أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وأن طلبك وأقبل عليك.

٤- أن تعرض عنه استصغارًا له.

٥- أن تتكلم فيه بما لا يحل: من كذب، وغيبة، وإفشاء سر، وهتك ستر.

٦- أن تحاكيه استهزاء به، وسخرية منه.

٧- أن تؤذيه بضرب أو شبهة مما يؤلم بدنه.

٨- أن تمنعه حقه: من قضاء دين، أو صلة رحم، أو رد مظلمة.

قال الغزالي: «وكل ذلك حرام. وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما يُعْصَى به الله، ولكن تستثقله في الباطن. ولا ينتهي قلبك عن بغضه حتى تمتنع عما كنت تتطوع به عن البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته، أو الدعاء له، والثناء عليه، والتحريض على بره ومواساته. فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين، وإن كان لا يعرضك لعقاب[1]».

وللحقود عند القدرة ثلاثة أحوال: الأولى استيفاء الحق من غير زيادة ولا نقصان وهو العدل، والثانية الإحسان بالعفو والصلة وهو الفضل، والثالثة الظلم، وهو المنهي عنه.

---

(1) ١٨١ ج ٣.

الفصل الثالث

رذيلة الحسد

هو إحدى نتائج الحقد، وله فيما يرى الغزالي أربع مراتب:

الأولى: أن يحب المرء زوال النعمة عن غيره، وإن كانت لا تنتقل إليه وهذا غاية الخبث.

الثانية: أن يحب زوالها إليه: لرغبته في مثل تلك النعمة، كأن يرى عند غيره امرأة جميلة ويحب أن تكون له، فمطلوبه تلك النعمة لا زوالها، ومكروهه فقدها لا تنعم غيره بها.

الثالثة: أن لا يشتهي عينها لنفسه، بل يشتهي مثلها، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها، كي لا يظهر التفاوت بينهما.

الرابعة: أن يشتهي لنفسه مثلها، فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه، وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا، والمندوب إليه إن كان في الدين.

والرتبة الأولى مذمومة، وتسمية الثانية حسدًا تجوز، فإنما هي تمني ما للغير، وهو أيضًا مذموم لقوله تعالى: {ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض}[1] والثالثة أخف من الأولى.

---

[1] سورة النساء: ٣٢.

أسبابه وعلاجه

ويرى الغزالي أن أسباب الحسد ترجع إلى العداوة، والتعزز، والكبر، والعجب، والخوف من فوت المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة، وخبث النفس. وأكثر ما يكون الحسد بين الأمثال والأقران، والأخوة، وبني العم، والأقارب، لأن كثرة الروابط تولد أسباب الحسد والبغضاء.

وعلاج الحسد فيما يرى الغزالي ينحصر في تأديب النفس وتبصيرها بخط هذه الرذيلة، فإن الحاسد إنما ينكر في غيره نعمة أنعم الله بها عليه، ومن واجب الرجل أن يشغل بنفسه، وأن يحفظ وقته فلا يضيعه فيما لا يغني ولا يفيد، فليس أضيع من وقت يصرف في بغض نعمة لا يملك المرء زوالها عن سواه.

وقد قرر الغزالي أن الحسد يكاد يكون طبيعة في النفوس، وأن الأمل في السلامة منه بالكلية بعيد.

obeikandl.com

الفصل الرابع

رذيلة العجب

للعالم بكمال نفسه في علم، أو عمل، أو مال، ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون خائفًا على زواله، ومشفقًا على تكدره، أو سلبه من أصله، وهذا ليس بمعجب.

الثانية: أن لا يكون خائفًا من زواله، ولكن يكون فرحًا به، من حيث هو نعمة من الله، لا من حيث إضافته إلى نفسه، وهذا أيضًا ليس بمعجب.

الثالثة: أن يكون غير خائف عليه، بل يكون فرحًا به، مطمئنًا إليه، ويكون فرحه من حيث إنه كمال ونعمة، وخير ورفعة، لا من حيث أنه عطية من الله ونعمة منه، وهذا هو العجب. فهو إذًا استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى النعم. قال الغزالي: «فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسه أن له عند الله حقًا، وأنه منه بمكان، حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا واستبعد أن يجري عليه مكروهًا يزيد على استبعاده ما يجري على الفساق سمي هذا إدلالًا بالعمل .. والإدلال وراء العجب، فلا مدل إلا وهو معجب، ورب معجب لا يدل، إذ العجب يحصل بالاستعظام ونسيان النعمة دون توقع جزاء، والإدلال لا يتم إلا مع توقع جزاء والعجب والإدلال من مقدمات الكبر وأسبابه»[1].

---

(1) ٣٧٧ ج ٣.

obeikandi.com

أسبابه وعلاجه

وإليك ما يعجب به الناس مع وصف العلاج:

الأول: أن يعجب المرء ببدنه: في هيئته وصحته، وقوته، وتناسب أشكاله، وحسن صورته، وجمال صوته.

وعلاجه أن ينظر في مصير الوجوه الجميلة، والأبدان الناعمة، وكيف يعبث بها التراب.

الثاني: البطش والقوة، وعلاجه أن ينظر ما حل بقوم عاد.

الثالث: العجب بالعقل، والكياسة، والتفطن لدقائق الأمور، من مصالح الدنيا والدين. وآفة هذا الاستبداد بالرأي وترك المشورة.

وعلاجه أن ينظر في مصير عقله لو أصيب بمرض في دماغه.

الرابع: العجب بالنسب الشريف.

وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم، وظن أنه يلحق بهم، فقد جهل.

الخامس: العجب بنسب السلاطين الظلمة، وأعوانهم، دون نسب العلم والدين.

وعلاجه أن يفكر في مخازيهم، وفي مصيرهم يوم الحساب.

obeikandl.com

السادس: العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشرية والأقارب والأنصار والأتباع.

وعلاجه أن يتفكر في ضعفه وضعفهم، وأنهم كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا.

السابع: العجب بالمال.

وعلاجه أن يتفكر في آفات المال، وكثرة حقوقه، وغوائله.

الثامن: العجب بالرأي الخطأ، كما قال تعالى: {أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا}[1].

قال الغزالي: «وعلاج هذا العجب أشد من غيره؛ لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف، والجهل داء لا يعرف، فتعسرت مداواته جدًا... وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهمًا لرأيه أبدًا لا يغتر به إلا أن يشهد قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة»[2].

وقد بين الغزالي فوق ما سلف أن العجب مع الله يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، فبعض ذنوب المرء لا يذكرها ولا يتفقدها لظنه أنه مستغن عن تفقدها فينساها. وما يتذكره منها يستصغره ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركه وتلافيه، بل يظن أنه يغفر له: ومتى أعجب المرء بأعماله عمي عن آفاتها. ومن لم يتفقد آفات

---

(1) سورة فاطر: ٨.

(2) ص ٣٨٤ ج ٣.

أعماله كان أكثر سعيه ضائعًا، فإن الأعمال الظاهرة إذا لم تكن خالصة نقية عن الشوائب قلما تنفع. وإنما يتفقد عمله من يغلب عليه الخوف والإشفاق دون المعجب، فإنه يغتر بنفسه وبرأيه، ويأمن مكر الله وعذابه، إذ يظن أنه قد استغنى وفاز، وهذا هو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيه. كما قال الغزالي.

obeikandl.com

الفصل الخامس

رذيلة الكبر

يقسم الغزالي الكبر: إلى باطن وظاهر. فالباطن هو خلق في النفس. والظاهر هو أعمال تصدر من الجوارح. ويسمى الباطن الكبر، والظاهر التكبر. والكبر فيما يرى ثمرة العجب. وينفصل عنه بأنه يتطلب متكبرًا عليه، بخلاف العجب، فقد يعجب المرء بنفسه، وماله، وعمله، ولو خلق وحده.

والتكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام:

الأول: التكبر على الله وهو أفحش أنواع الكبر، ومثاله ما كان من فرعون.

الثاني: التكبر على الرسل، ومثاله ما كان من قريش وبني إسرائيل.

الثالث: التكبر على العباد، بأن يستعظم المرء نفسه، ويستحقر غيره.

أسباب التكبر

وللتكبر سبعة أسباب:

الأول: العلم، وما أسرع الكبر إلى العلماء!

الثاني: العمل والعبادة. ولكن العلماء والعباد في آفة الكبر على ثلاث درجات: الأولى أن يكون الكبر مستقرًا في قلب المرء فيرى نفسه خيرًا من غيره، إلا أنه يجتهد ويتواضع ويفعل فعل من يره غيره خيرًا من نفسه، وهذا قد غرست في نفسه شجرة الكبر ولكنه قطع أغصانها. الثانية، أن يظهر ذلك على أفعاله بالترفع في المجالس

والتقدم على الأقران وإظهار الإنكار على من يقصر في حقه، بتصعير خده وتقليب جبينه. قال الغزالي: «وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الوجه حتى يعبس، ولا في الخد حتى يصعر، ولا في الرقبة حتى تطأطأ، ولا في الذيل حتى يضم، وإنما الورع في القلوب»[1].

الثالثة أن يظهر الكبر على لسانه حتى يدعوه إلى الدعوى والمفاخرة والمباهات وتزكية النفس وحكاية الأحوال والمقامات.

الثالث: التكبر بالحسب والنسب.

الرابع: التفخر بالجمال، وأكثر ما يجري هذا بين النساء.

الخامس: التكبر بالمال، ويجري هذا بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم، وبين الدهاقين في أراضيهم، وبين المتجملين في ملابسهم، وخيولهم، ومراكبهم.

السادس: التكبر بالقوة وشدة البطش.

السابع: التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين.

قال الغزالي: «وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالًا وإن لم يكن في نفسه كمالًا أمكن أن يتكبر به»[2].

---

[1] ٣٥٥ ج ٣.

[2] ص ٣٥٧ ج ٣.

وعلامات التكبر -كما ذكر الغزالي- تظهر في شمائل الرجل: كصعر خده، ونظره شزرًا، وإطراقه برأسه، وفي جلوسه متكئًا. وتظهر في مشيته، وتبختره، وقيامه وقعوده، وحركاته وسكناته، وفي سائر تقلباته في أحواله وأقوال وأعماله.

وإزالة الكبر -فيما يرى الغزالي- فرض عين، وهو لا يزول التمني، بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له.

علاجه

ولعلاجه طريقتان:

الأولى: قلع شجرته من مغرسها في القلب، وذلك بمعرفة المرء نفسه بالذلة، وربه بالعزة، إلى آخر ما قال الغزالي.

الثانية: دفع عارض الكبر، بدفع الأسباب الخاصة التي يتكبر بها الإنسان على غيره، وأنت لا تزال قريبًا من تلك الأسباب السبعة التي توجب التكبر فيما يراه، وقد وضع لكل سبب علاجًا خاصًا، غير أنه لا يفترق كثيرًا عما لخصناه له من علاج العجب، فلنكتف به، فإن أسباب هاتين الرذيلتين تكاد تكون واحدة، وإن كانت الثانية نتيجة الأولى.

الفصل السادس

آفات اللسان

وقد رأى الغزالي أن اللسان كثير العثرات، ولا بد للمرء من ضبطه، فبسط القول في آفاته، وكتب في ذلك نحو خمسين صفحة، بين فيها حدود تلك الآفات، وأسبابها، وغوائلها، وطريق الاحتراز عنها.

وقد مهد لآفات اللسان بكلمة مطولة حض فيها على الصمت، ثم قال في تبرير ما دعا إليه من الأخلاد إلى السكوت: «فإن قلت: فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ، والكذب، والغيبة، والنميمة، والرياء، والنفاق، والفحش، والمراء، وتزكية النفس والخوض في الباطل، والخصومة، والفضول، والتحريف، والزيادة، والنقصان، وإيذاء الخلق، وهتك العورات.

فهذه آفات كثيرة، وهي سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه، ولها حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع، ومن الشيطان. والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب، ويمسكه ويكف عمّا لا يحب، فإن ذلك من غوامض العلم».

ثم خشي أن يرميه القارئ بالإسراف فقال: «ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر: وهو أن الكلام أربعة أقسام: قسم هو ضرر محض، وقسم هو نفع محض، وقسم فيه ضرر ومنفعة، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة. أما الذي هو ضرر محض فلا بد من السكوت عنه وكذلك ما فيه من ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر. وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول، والاشتغال به تضييع زمان، وهو عين الخسران.

فلم يبق إلا القسم الرابع، فقد سقط ثلاثة أرباع الكلام. وبقي ربع، وهذا الربع فيه خطر إذ يمتزج بما فيه إثم من دقائق الرياء، والتصنع، والغيبة، وتزكية النفس، وفضول الكلام، امتزاجًا يخفى دركه، فيكون الإنسان به مخاطرًا»[1].

وهذا من الغزالي إغراق في حب السلامة. ونحن ذاكرون خلاصة هذه الآفات، لنعرف رأيه في طبائع الأفراد.

الكلام فيما لا يعني

أما الآفة الأولى: فهي الكلام فيما لا يعني، وحده -كما قال الغزالي- أن تتكلم بكل ما لو سكت عنه لم تأثم، ولم تستضر به في حال أو مآل، ومن أمثلته فيما يرى أن يذكر المرء أسفاره وما رأى فيها من جبال وأنهار، وما وقع له فيها من الوقائع وما استحسنه من الأطعمة والثياب، وما تعجب منه من مشايخ البلاد وحوادثهم.

ولم ينتبه الغزالي لخطر هذا المثال. فإن الكلام عن الأسفار والرحلات من الأمور ذوات البال، والتحدث عن طبائع البلاد وأخلاق الناس من المستحسنات. ونحن مدينون بما تعلم من عادات الأمم وأخلاقها إلى هؤلاء الذين يتحدثون بما لا يعنيهم فيقصون علينا ما رأوا في أسفارهم من الجبال، والأنهار، والأطعمة والثياب، وإن عد الغزالي حديثهم ولو احترزوا تضييعا للزمان.

ومما أصاب في عده مما لا يعني أن ترى إنسانًا في الطريق فتقول من أين؟ فربما يمنعه مانع من ذكره، فإن ذكر تأذى به واستحيا، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه، وكذلك سؤالك امرأ عن المعاصي، وعن كل ما يخفيه ويستحي منه، وسؤالك عما حدث به غيرك.

---

[1] ص ١١٨ ج ٢ إحياء.

والباعث على هذه الآفة -فيما يرى- هو الحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها.

وأما علاج ذلك فهو أن يعلم أن الموت بين يديه، وأنه مسئول عن كل كلمة، وأن أنفاسه رأس ماله، وأن لسانه شبكة يقدر على أن يقتنص بها الحور العين، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين.

يقول الغزالي: «هذا علاجه من حيث العلم، وأما من حيث العمل فالعزلة، وأن يضع حصاة في فيه، وأن يلزم نفسه السكوت عن بعض ما يعنيه، حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه»[1](؟!).

فضول الكلام

أما الآفة الثانية: فهي فضول الكلام. وهو يتناول الخوض فيما لا يعني، والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة. فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره. قال الغزالي: «ومما تأدى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين، فالثانية فضول وهو مذموم وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر»[2].

وسبب هذه الآفة وعلاجها مماثلان لسبب وعلاج الكلام فيما لا يعني.

---

(1) ص ١٢١ ج ٣ إحياء.

(2) ص ١٢١ إحياء ج ٢.

الخوض في الباطل

وأما الآفة الثالثة: فهي الخوض في الباطل. وعد الغزالي منه حكاية أحوال النساء ومجالس الخمر، ومقامات الفساق، وتنعم الأغنياء. وتجبر الملوك، ومراسمهم المذموم وأحوالهم المكروهة وقرر أن مثل هذا لا يحل الخوض فيه وهو حرام، بخلاف الكلام فيما لا يعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى. ويدخل الغزالي في هذا الباب الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة، وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم. ثم قال: «وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا»[1].

المراء والجدال

أما الآفة الرابعة فهي المراء والجدال. والمراء كما حدده الغزالي «هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه. إما في اللفظ، وإما في المعنى، وإما في قصد المتكلم».

وترك المراء فيما يرى يكون بترك الإنكار والاعتراض، فكل كلام سمعه المرء صدق به إن كان حقًا، وسكت عنه أن كان باطلًا أو كذبًا. ولم يكن متعلقًا بأمور الدين. وليس له أن يطعن في كلام غيره بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهة اللغة، أو من جهة النظم والترتيب، أو من جهة المعنى، أو من جهة القصد: كأن يقول هذا كلام حق، ولكن ليس قصدك منه الحق، وإنما أنت فيه صاحب غرض. يقول الغزالي: «وهذا الجنس إن جرى في مسألة علمية ربما خص باسم الجدل. وهو

---

[1] ص ١٢٢ ج ٣.

أيضا مذموم، بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد. أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن».

«وأما المجادلة فعبارة عن قصد إفحام الغير، وتعجيزه، وتنقيصه بالقدح في كلامه، ونسبته إلى القصور والجهل فيه».

والباعث على المراء والجدال فيما يرى الغزالي هو الترفع بإظهار العلم والفضل، والتهجم على الغير بإظهار نقصه، وهما شهوتان باطنتان للنفس يرجعان إلى السبعية والكبرياء.

وأما العلاج فيكون بكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره «والسبعية في عبارات المتقدمين هي القوة الوجدانية المشتركة بين الإنسان وبين كبار الحيوانات: فالانتقام قوة سبعية لأنه من صفات الجمل، والعفة من أكل ما يكسب الغير قوة سبعية؛ لأنه من صفات الأسد، إذ لا يأكل فريسته».

الخصومة

أما الآفة الخامسة فهي الخصومة. وهي لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو مقصود. قال الغزالي: «فإن قلت: فإذا كان للإنسان حق فلا بد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه، مهما ظلمه ظالم، فكيف يكون حكمه، وكيف تذم خصومته؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم، ويتناول الذي يمزج بالخصومة كلمات مؤذية لا يحتاج إليها في نصرة الحجة وإظهار الحق. ويتناول الذي يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره... فأما الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلًا».

وقد بَيَّن الغزالي كيف توغر الخصومة الصدر، وتهيج الغضب حتى ينسى المتنازع فيه، ويبقى الحقد بين المتخاصمين: فيفرح كل واحدة بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته، ويطلق اللسان في عرضه. فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات.

التقعر في الكلام

الآفة السادسة هي التقعر في الكلام بالتشدق، وتكلف السجع والفصاحة، والتصنع فيها بالتشبيهات والمقدمات، وما جرت به عادة المتفاصحين.

والغزالي يفرق بين من يلقي خطبة، وبين من يتكلم كلامًا عاديًّا، ولا حرج على الخطيب فيما يرى الغزالي أن يلجأ إلى المحسنات اللفظيَّة، في غير إفراط أو إغراب، فإن المقصود من الخطبة تحريك القلوب، وتشويقها، وقبضها، وبسطها، ولرشاقة اللفظ في ذلك كله تأثير.

أما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات، فالغزالي ينكر أن يكون فيها أي مظهر من مظاهر التكلف كالسجع أو غيره «بل ينبغي أن يقتصر المرء في كل شيء على مقصوده، ومقصود الكلام التفهيم للغرض، وما وراء ذلك تصنع مذموم».

والآفة الخلقية للتصنع فيما يرى الغزالي ترجع إلى الباعث عليه: وهو الرياء، وحب الظهور بالفصاحة، والتميز بالبراعة.

الفحش

والآفة السابعة هي الفحش، وهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة. وهذه العبارات متفاوتة في الفحش، وبعضها أفحش من بعض، وربما اختلف ذلك بعادة البلاد. وقد ذكر الغزالي من ذلك ما يجري في ألفاظ الوقاع وما

يتعلق به، والعيوب التي يستحيا منها كالبرص والقراع والبواسير، ثم حض على استعمال الكتابة في مثل تلك المواطن.

والباعث على الفحش فيما يرى: إما قصد الإيذاء، وإمَّا الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق، وأهل الخبث واللؤم.

وقد عد الغزالي الفحش والسب والبذاء آفة واحدة، وأضاف إليها «البيان» الوارد في حديث «**البذاء والبيان شعبتان من شعب النفاق**» وفسر هذا البيان بكشف ما لا يجوز كشفه، أو المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حد التكلف. أو البيان في أمور الدين، وفي صفات الله أمام العوام، إذ قد يثور من غاية البيان فيها شكوك ووسواس.

اللعن

أما الآفة الثامنة فهي اللعن، لحيوان أو إنسان أو جماد، وكل ذلك مذموم.

وللغزالي في هذا الباب نظر دقيق: فهو لا يجيز أن تقول في رجل حي من اليهود مثلًا لعنه الله، كما تقول: لعن الله أبا جهل وفرعون، فإنه ربما يسلم فيموت مقربًا عند الله، ولا يجيز أن يلعن المبتدع لأن معرفة البدعة غامضة «ومن بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى لمسلم، فإن كان لم يجز ولا يجوز لعن يزيد، لأنه لا يجوز أن يقال أنه قتل الحسين، أو أمر بقتله ما لم يثبت ذلك. فضلا عن اللعنة: إذ لا تجوز نسبة مسلم إلى كبيرة من غير تحقيق، ولا يجوز أن يرمى مسلم بفسق وكفر من غير تحقيق».

قال الغزالي: «والمؤمن ليس بلعان، فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين».

المزاح

الآفة التاسعة هي المزاح، والمذموم منه فيما يرى الغزالي هو الإفراط فيه، أو المداومة عليه. فلك أن تمزح كما كان يمزح رسول الله: فلا تقول إلا حقًا، ولا تؤذي قلبًا، ولا تفرط فيسقط وقارك.

الاستهزاء

أما الآفة العاشرة فهي الاستهزاء وحده كما قال الغزالي: «الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول، وقد يكون بالإشارة والإيماء».

وقد نص الغزالي على أن هذا إنما يحرم في حق من يتأذى به، فأما من جعل نفسه مسخرة، وربما فرح من أن يسخر به، كانت السخرة في حقه من جملة المزاح فله حكمه؛ لأن المحرم هو استصغار يتأذى به المستهزأ به، لما فيه من التحقير.

إفشاء السر

الآفة الحادية عشرة هي إفشاء السر، وهو مذموم لما فيه من الإيذاء والتهاون في حق المعارف والأصدقاء، يقول الغزالي: «وهو حرام إذا كان فيه إضرار، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار».

وقد عد من حقوق الأخ على أخيه في كتاب الصحبة: «أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه، وله أن ينكره وإن كان كاذبًا، فليس الصدق واجبًا في كل مقام،

فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه. فإن أخاه نازل منزلته، وهما كشخص واحد لا يختلفان إلا بالبدن».

الوعد الكاذب

الآفة الثانية عشرة هي الوعد الكاذب، وقد بين الغزالي أن ذلك يكون بالوعد على نية الخلف، أو ترك الوفاء من غير عذر، ولا جناح على من عزم على الوفاء فعن له عذر فمنعه.

الكذب في القول واليمين

الآفة الثالثة عشرة هي الكذب في القول واليمين. وقد نص الغزالي على «أن الكذب ليس حرامًا لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلًا، وقد يتعلق به ضرر غيره ورب جهل فيه منفعة ومصلحة فالكذب المحصل لذلك الجهل يكون مأذونًا فيه وربما كان واجبًا» وقد بينا المواطن التي أباح الغزالي فيها الكذب حين تكلمنا عن رأيه في الوسائل والغايات.

الغيبة

الآفة الرابعة عشرة هي الغيبة. وحدها «أن تذكر أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرته بنقص في بدنه، أو نسبه، أو في خلقه، أو في فعله، أو في قوله، أو في دينه، أو في دنياه، حتى في ثوبه وداره ودابته».

وقد نص على أن التصريح ليس شرطًا في تحقيق الغيبة، بل تكفي الإشارة، والإيماء، والغمز، والهمز، والكتابة، والحركة، وكل ما يفهم منه المقصود. وللغيبة أسباب نذكر منها الأربعة الآتية:

١- موافقة الأقران، ومجاملة الرفقاء، ومساعدتهم على الكلام.

٢- إرادة التصنع، والمباهاة، كأن يرفع المرء نفسه بتنقيص غيره.

٣- اللعب، والهزل، والمطايبة، وتزجية الوقت بذكر عيوب الناس.

٤- البراءة مما ينسب المرء إليه بتنقيص من يفعله.

وقد تنبه الغزالي إلى ما يقع فيه علماء الدين، فقد ينكرون المنكر، ويقعون في صاحبه، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، مع أنهم يكفيهم أن يشخصوا المنكرات بلا تعرض للأشخاص، وقد يغضبون لله حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ولكنهم يذكرون أشخاصًا بالسوء، فيحبطون ما يعملون.

والغزالي يصف لعلاج الغيبة قراءة الآثار والأحاديث الواردة في هذه الآفة. وقد عد سوء الظن غيبة القلب ونهى عنه ثم ذكر المواطن التي تجوز فيها الغيبة، وقد فصلناها أيضًا في الوسائل والغايات، كما بينا رأيه في كفارة الغيبة في الخروج من المظالم.

النميمة

الآفة الخامسة عشرة هي النميمة. وهي كما يقول الغزالي «كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث. وسواء كان الكشف بالقول،

أو بالكتابة، أو بالرمز، أو بالإيماء. وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبًا ونقصًا في المنقول عنه أو لم يكن»[١].

ولم يقتصر الغزالي على تقبيح النميمة، وعدها من آفات اللسان، بل وضع للرجل آدابًا خاصة إزاء النمام. وهي:

١ – أن لا يصدقه؛ لأنَّ النمام فاسق، وهو مردود الشهادة.

٢ – أن ينهاه عن ذلك، وينصح له، ويقبح عليه فعله.

٣ – أن يبغضه في الله، فإنه بغيض عند الله.

٤ – أن لا يظن بأخيه الغائب السوء، فإن بعض الظن إثم.

٥ – أن لا يحمله ما حكي له على التجسس، والبحث لأجل التحقق.

٦ – وأن لا يحكي النميمة، وإلا رضي لنفسه ما نهى النمام عنه.

قال الغزالي: «والسعاية هي النميمة، إلا أنها إذا كانت إلى من يخاف جانبه سميت سعاية» ثم نقل قول مصعب بن الزبير: «نحن نرى أن قبول السعاية شر من السعاية؛ لأن السعاية دلالة والقبول إجازة، وليس من دل على شيء فأخبر به كمن قبله وأجازه، فاتقوا الساعي، فلو كان صادقًا في قوله لكان لئيمًا في صدقه، حيث لم يحفظ الحرمة، ولم يستر العورة»[٢].

---

[١] ص ١٥٧ ج ٣.

[٢] ص ٢٥٨.

ولا شك في أن الغزالي يرتضي حكم مصعب في قبول السعاية؛ لأنه لم يعقب عليه، ولم يذكر من أقوال السلف ما ينقضه. والسعاية والنميمة شيء واحد، أو كأنهما شيء واحد، فمن الواجب أن تكون آداب المرء واحدة إزاء النمامين والسعادة، وهو ما نحسبه رأي الغزالي وإن لم يصرح به.

وفي الوسائل والغايات تجد ما يجوز من النميمة فيما يرى الغزالي.

كلام ذي اللسانين

الآفة السادسة عشرة هي كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه وهو فيما يرى الغزالي نفاق «ولو دخل الرجل على متعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقا لم يكن ذا لسانين ولم يكن منافقا، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة ضعيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة، إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة، إذ يصير نماما بأن ينقل من أحد الجانبين فقط، فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام. وإن لم ينقل كلاما، ولكن حسن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة لصاحبه فهذا ذو لسانين وكذلك إذا أثنى على أحدهما وإذا خرج من عنده ذمه فهو ذو لسانين. بل ينبغي أن يسكت، أو يثني على المحق من المتعاديين في غيبته وفي حضوره، وبين يدي عدوه ... ولا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كلام باطل، فإن فعل ذلك فهو منافق، بل ينبغي أن ينكر، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه»[1].

---

[1] ص ١٦٠ ج ٣.

المدح

الآفة السابعة عشرة هي المدح، وهو منهي عنه في بعض المواضع، وفي بعضها لا بأس به، بل ربما كان مندوبا إليه، وقد بين الغزالي أن لهذه الرذيلة أربع آفات في حق المادح، واثنتين في حق الممدوح، أما آفاتها في حق المادح فهي:

١- أنه قد يفرط فينتهي به الإفراط إلى الكذب.

٢- وقد يدخله الرياء، فإنه بالمدح مظهر للحب، وقد لا يكون مضمرا له، ولا معتقدا لجميع ما يقوله، فيصير به مرائيا منافقا.

٣- وقد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه، ويرى الغزالي أن هذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة: كقولك: إنه متق، وورع وزاهد، وخيِّر، وما يجري مجراه.

٤- وقد يفرح الممدوح، وهو ظالم أو فاسق، وذلك غير جائز. أما آفاتها في حق الممدوح فهي:

١- أن المدح قد يُحْدِث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان.

٢- وأنه إذا أثنى عليه بالخير فرح به وفتر، ورضي عن نفسه، فقَل جده.

وبعد أن بين الغزالي آفات المدح، دعا الممدوح إلى أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر، والعجب، وآفة الفتور، بأن يتأمل ما في خطر الخاتمة، ودقائق الرياء، وآفات الأعمال، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشفت له جميع

أسراره وما يجري على خواطره، لكف المادح عن مدحه؛ وحضه كذلك على أن يظهر كراهة المدح بإذلال المادح.

الغفلة

الآفة الثامنة عشرة هي الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، ويرتبط بأمور الدين.

ومن الأمثلة التي ذكرها الغزالي أنه لا يصح أن تقول: عبدي وأمتي، لأننا جميعا عبيد الله، ونساؤنا جميعا إماء الله، بل تقول: غلامي وجاريتي .... إلخ.

السؤال عن صفات الله

الآفة التاسعة عشرة هي سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه، وعن الحروف، وأنها قديمة أو محدثة. يقول الغزالي: «وكل كبيرة يرتكبها العامي فهي أسلم له من أن يتكلم في العلم، لا سيما فيما يتعلق بالله وصفاته، وإنما شأن العوام الاشتغال بالعبادات، والإيمان بما ورد به القرآن، والتسليم لما جاء به الرسل من غير بحث. وسؤالهم عن غير ما يتعلق بالعبادات سوء أدب منهم يستحقون به المقت من الله عز وجل، ويتعرضون لخطر الكفر. وهو كسؤال ساسة الدواب عن أسرار الملوك وهو موجب للعقوبة».

الغناء

الآفة العشرون هي الغناء، وتجد تفصيلها في البحث عن رأيه في الفنون. وإنه ليخيل إلى المرء أن الغزالي بالغ في آفات اللسان، ولكن هذه المبالغة ليست إلا نوعا من الاحتياط، وهي ليست كبيرة على من يطمع في مكارم الأخلاق.

الفصل السابع

رذيلة الرياء

إنك لترحم الغزالي حين تقرأ ما كتبه عن الرياء، فإنك تتصوره رجلا كاد يجن من غلبة الجهال في عصره. ويكفي أن نلخص آراءه في هذا الباب لترى كيف كان الرجل يمقت الرياء، ويبغض من أعماق صدره أعمال المرائين.

فما يمقته الغزالي أن يظهر المسلم النحول والصفار، ليدل بالنحول على قلة الأكل وبالصفار على سهر الليالي. يقول الغزالي: «ويقرب من هذا خفض الصوت، وإغارة العينين، وذبول الشفتين ليستدل بذلك على أنه مواظب على الصوم، وأن وقار الشرع هو الذي خفض صوته، وضعف الجوع هو الذي أضعف من قوته».

ومن الرياء تشعيث الشعر، وحلق الشارب، وإطراق الرأس في المشي، والهدوء في الحركة، وإبقاء أثر السجود على الوجه، وغلظ الثياب، وتشميرها إلى قريب من الساق، وتقصير الأكمام وترك تنظيف الثوب، والتطويل في الركوع والسجود ... إلخ.

ولم يغفل الغزالي عن الشئون الاجتماعية وهو يتكلم في الرياء فقد بين أن من الناس من يظهر التقوى والورع والامتناع عن أكل الشبهات، ليعرف بالأمانة فيولى القضاء، أو الأوقاف أو الوصايا، أو مال الأيتام، فيأخذها. أو يسلم إليه تفرقة الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها. أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدها أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ... إلخ.

وللغزالي في هذا الباب نظر بعيد: فهو يعين العيوب الاجتماعية، ويشرح عيوب العلماء والزهاد. ويظهر أن الناس لعهده كانوا يتخذون دين الله سلما لأغراضهم الخبيثة: من الفسق والفجور، ونهب الأموال.

وأكرر ما قلته من أن الغزالي لا يغضب إلا حين يحارب رذيلة يراها بعينه فكلامه في ذلك صورة لعصره، وليس أثرا لمطالعاته في الكتب القديمة التي تصف عيوب الناس. وفي مقدور الباحث أن يستخرج من كتاب الإحياء صورة واضحة للعلماء والزهاد في عهد الغزالي. ولا أقول: الحكام والأمراء، لأنه تكلم عن الحكومة لعهده بضعف وفتور، ولم يقاس السلاطين شيئا من لسانه الحديد!!

obeikandl.com